مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى الهادي الذي فَلَّ السَّفَهَ، وَثَلَّ الشُّبَه، وأَزَاحَ الظُلَم، وتركنا على المَحَجّةِ البيضاء ليلها كنهارها، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد فإن جدلاً معاصراً يدور حول فقه نصوص الوحي وتجديد مناهج النظر فيها، ومن جملة إفرازاته ظهور فكر يخلط الظني بالقطعي، والمحكم بالمتشابه، والمنسوخ بالناسخ، وما يسوغ فيه الخلاف بما لا يسوغ فيه، ومغلق الدلالة بمفتوحها، والثوابت بالمتغيرات، والمصالح المعتبرة بالملغاة، وما تتغير فيه الفتوى باختلاف الزمان أو المكان أو الحال بما لا تتغير فيه، وما راعى الشرع فيه الواقع بما لا تأثير للواقع في حكمه، وما يحتاج إلى التجديد ويقبله بالذي لا يحتاج التجديد ولا يقبله، وما كان من الأصول بما هو من الفروع، وما تظهر فيه العلة بما لا يمكن إدراك علته، وما للعقل فيه مسرح بما ليس له فيه إلا التسليم والانقياد، وما كان من العقائد بما هو من غيرها، والأصيل بالدخيل، والعالم بالمتعالم، والفقه بالثقافة السطحية، والصحافة بالاجتهاد، والشريعة بالفلسفة، ونظريات العلوم الطبيعية بالإنسانية، والإسلام بالديانات السماوية المنسوخة، والمطلق بالنسبي، والاتباع بالابتداع، والتجديد بالتبديد، والعلمانية بالدين..، ولعل قضية النهضة هي الأكثر حضوراً وتأثيراً في هذا الجدل المتحرك بين الخطاب الصادر عن أصول وقواعد المنهج الإسلامي في فهم نصوص الوحي والخطاب المستلهم للنسخة الغربية.

تصدر الاشتغال بالأخير مشروعات سيد خان وفضل الرحمٰن الباكستاني والجابري ونصر أبو زيد وحسن حنفي وأركون وطيب تيزيني وغيرهم، ويعمل هذا الخطاب لتصدير التعريف بمحتواه كجزء من رسالة البعث الحضاري المؤسس على التفاعل بين الحضارات، مستفيداً من غلبة الثقافة الغربية، معتمداً على اتهام الأول بالنكوص والغرق في وهم المؤامرة.

في حين يعمل الأول لتجديد الثقة بالأصول النقلية والعقلية للمنهج الإسلامي موقناً بقدرتها على الإبداع واستيعاب مستجدات الوسائل والأفكار والمناهج المبتكرة أو المطورة في ضوء أصول الإسلام وكلياته ومقاصده وقواعده، منبهاً على خطر الغلو في إنكار فعل المؤامرة.

تدافع كثير من المهتمين (من الفريقين) للإسهام في تحرير القضايا المنهجية الناظمة لخطاب النهضة، ونشطت النسخة الغربية في تفسير نصوص الوحي وتأويلها والاستنباط منها، وذلك ما أُطلق عليه إعادة قراءة النص أو القراءات المعاصرة.

تُرجمت تلك النسخة إلى مشروعات فكرية مطولة حققت رواجاً أدنى آثاره ظهور طوائف من المحررين وأصحاب الأقلام الظانين أن التجديد وتجريد الحقيقة من عوالق النكوص يبدأ بحذف البسملة من مقدمات التأليف، أو بإحلال المثل الإنجليزي محل مكنونات الحكم التي نتلوها في كتبنا، أو بمزاحمة أقوال السلف بأقوال غاندي وفولتيير، أو بدمج كلمتين بالإنجليزية مع نصف كلمة عربية لتحصيل ما لا يساوي عناء الترجمة.

في غمرة هذا السجال كان الفقه الإسلامي هو الميدان الأرحب للجدل بين الفريقين، وفيه قالت القراءات المعاصرة: إنها ناصحة للإسلام، وساعية لتجديده، ولا تريد نقض أصوله ولا العبث بفروعه، فمهمتها التنوير والتحديث والتجديد والتطوير، مؤكدة أن هدفها إعادة الاعتبار للعقل الإسلامي، والتنبيه على دوره في النهضة، وأن في معيتها حزمة من المناهج التي تصفها بالعلمية والحديثة، تستخدمها لقراءة النص الشرعي بطرق معاصرة، جديدة، حديثة، لم يعرفها الفقه الإسلامي.

والإشكال أولاً وأخيراً سببه المنهج، والمنهج في جزئية فقه الأحكام وقراءة النص الشرعي بحر محيط ليس لدراسة مضروبة المعالم محدودة المجال أن ترد فيه بالقول الفصل؛ لذلك صح لهذه الدراسة أن تكون بمثابة مقدمة في جدل المنهج بين القراءات المعاصرة والفقه الإسلامي.

ومن نفل الحديث التنبيه إلى أن الجدل في جزئية قراءة النص قديم قال الشاطبي واصفاً الخروج عن نواظم المنهج الإسلامي في القراءة والاستنباط بأنه: «راجع إلى الجهالات، ووجوه الجهل لا تنحصر»[1].

هذا الجدل الغابر الحاضر ليس على هيئة ثابتة فلكل عصر أحواله ومعارفه؛ لذلك من الضروري التعرف بظاهرة القراءات المعاصرة، وهو ما نحاول بيانه في هذه

(١) الاعتصام ٢/ ١١.

الدراسة، ملتزمين بفرض الحديث عن طرف يسير من قوانين المنهج على سبيل الرمز والتنبيه.

منبهين إلى أن قصور التآليف سُنَّة مطردة، عبر عنها معمر بن راشد بقوله: «لو عورض الكتاب مائة مرة ما كاد يسلم من أن يكون فيه سقط، أو قال خطأ»[1].

وقارب المعنى آخر فقال: «أول ما يبدو من ضعف ابن آدم أنه لا يكتب كتاباً فيبيت عنده ليلة إلا أحب في غدها أن يزيد فيه أو ينقص منه»[2].

ومثلها سُنَّة تفاوت درجات الذوق والقبول بين العقول، وفيها قيل: «نتائج الأفكار على اختلاف القرائح لا تتناهى، وإنما ينفق كل أحد على قدر سعته، لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها»[3].

وليس في تلك الحقائق شفاعة لمقصر لم يبذل وسعه، ولا ما يعفي مكلفاً من السؤال عن رقم بنانه، فلا أثقل من أمانة الحرف، ولا أشرف من صدق الكلمة ولا أرجى من سلامة النية، والله حسيب على كل نفس بما كسبت، وهو عليم بذات الصدور.

عبد الولي بن عبد الواحد الشلفي

(١) جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر ١/٧٨.

(٢) نقله الثعالبي في يتيمة الدهر ١/١، ولم يعزه لقائل بعينه.

(٣) صبح الأعشى، القلقشندي ١/٣٦.